البـاب التـاسع

خير ما يطلب من الله

وإن كان ولابد من الطلب فاطلب منه ما هو طالبه منك كما أشار إليه فى أول الباب التاسع فقال رضى الله عنه :

[خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك] .

قلت : والذى طالبه منا هى الاستقامة ظاهرًا وباطنًا ، ومرجعها إلى تحقيق العبودية فى الظاهر ، وكمال المعرفة فى الباطن .

أو تقول : الذى هو طالبه منا إصلاح الجوارح الظاهرة بالشريعة قيامًا برسم الحكمة وإصلاح القلوب والأسرار الباطنة بالحقيقة قيامًا بوظائف القدرة .

أو تقول : الذى طلبه منا امتثال أمره ، واجتناب نهيه والإكثار من ذكره ، والاستسلام لقهره ، فالأكمل فى حق العارف أن يستغنى بعلم الله ويكتفى بسؤال الحال عن طلب المقال ، فإن تجلى فيه وارد الطلب فخير ما يطلبه من سيده ما هو طالبه منه وهو ما تقدم ذكره .

ففى بعض الأحاديث : « إنَّ الله لاَيَسْأَلُ الْخَلْقَ عَنْ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَا عَنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، وَلكن عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ » .

قلت : لأن الأمر والنهى فى كسبه ومكلف به ، ومعرفة الذات والصفات والرضا والتسليم إنما هى مواهب جزاء الأعمال ، ونتائج الامتثال ، فإذا فعل ما أمره به سيده رزقه المعرفة به المعرفة العامة وهى معرفة الدليل ، فإذا اشتد عطشه قيض له من يأخذ بيده حتى يعرّفه به المعرفة الخاصة .

وقال بعضهم : إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله ، يعنى من غير طلب ما لم يكن لك فيها حظ فتحجب عن الله اهـ قال تعالى :

(ولا تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعض لِلرِّجالِ نَصيب مِمَّا

اكْتَسَبُوا وَلِلنسَاءِ نَصيبٌ مِما اكْتَسَبْنَ وَاسأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ)[1] وفضله هو الغنى به .

ومن دعاء الجنيد رضى الله عنه : اللهم وكل سؤال فعن أمرك لى بالسؤال ، فاجعل سؤالى لك سؤال محابك ، ولا تجعلنى ممن يتعمد بسؤاله مواضع الحظوظ ، بل يسأل القيام بواجب حقك .

ثم إذا طلبت منه فاطلب منه ما طلبه منك وهو الطاعة والاستقامة. ولم تساعفك الأقدار ومنعت منها قبل أن تسأل ، فإن لم تنهض إليها بقلبك وتأسفت عليها بنفسك فذلك علامة الاغترار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[الحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار].

قلت : الحزن هو التحسر على شىء ، فإن لم تحصله وندمت على عدم تحصيله ، أو التوجع على شىء منعت منه ولم تقدر على تحصيله ، فإن كان حزنك على شىء منعت منه ونهضت إلى أسبابه الموصلة إليه فهو حزن الصادقين .

وفيه قال أبو على الدقاق : يقطع صاحب الحزن فى شهر ما لا يقطعه غيره فى سنين ، وإن لم تنهض إلى أسبابه فهو حزن الكاذبين ، وإن كان على ما فات ونهضت إلى استدراك ما يمكن استدراكه فهو حزن الصادقين ، وإن لم تنهض إلى استدراكه فهو حزن الكاذبين وقد سمعَتْ رابعة العدوية رجلا يقول واحزناه ، فقالت له : قل واقلة حزناه فلو كان حزنك صادقًا لم يتهيأ لك أن تتنفس اهـ .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : ليس البكاء بتعصير العيون ، وإنما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه . وقيل : لا يغرنك بكاء الرجل ، فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون وقد فعلوا ما فعلوا اهـ . فالحزن على فقدان الطاعة مع عدم النهوض إلى استدراك ما فات منها أو تحصيل ما حضر منها من علامة الاغترار : أى الغرور وهو الركون إلى ما لا حقيقة له ، فالاغترار قبول الغارّ والانقياد إلى غروره وخدعه .

---

(١) سورة النساء : ٣٢ .

فالحزن ينقسم إلى ثلاثة أقسام : حزن الكاذبين ، والصادقين ، والصديقين السائرين . فحزن الكاذبين : هو ما تقدم من عدم النهوض والاستدراك لما فات . وحزن الصادقين هو الحزن المصحوب بالجد والاجتهاد ، والتوسط فى العمل والاقتصاد مع اغتنام ما بقى من الأوقات لاستدراك ما فات . وحزن الصدّيقين من السائرين : هو الحزن على فوات الأوقات ، أو حصول شىء من الغفلات ، أو وقوع ميل أو ركون إلى الحظوظ والشهوات إلا أن حزنهم لا يدوم ، إذ لا يقفون مع شىء ولا يقبضهم شىء . وأما الواصلون فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قال تعالى :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[1] .

إذ الحزن إنما يكون على فقد شىء أو فوات غرض ، وماذا فقد من وجد الله : (وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) .

وفى هذا المقام ينقطع البكاء ، إذ لا بكاء فى الجنة .

وقد رأى الصديق قومًا يقرءون ويبكون ، فقال : كذلك كنا تم قست القلوب ، فعبر بالقسوة عن التمكين أدبًا وتسترًا ، لأن القلب فى بدايته رطب يتأثر بالمواعظ وتحركه الأحوال ، فإذا استمر معها وتصلب لم يتأثر بشىء ويكون كالجبل الراسى .

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)[2] .

تنبيه : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : من لم تطاوعه نفسه على النهوض إلى الطاعات ، وأخلدت إلى أرض الشهوات فدواؤه فى حرفين : الأول أن يعلم منة الله عليه بالهداية للإسلام ومحبة الإيمان ، فيشكر الله عليها ليحصن بقاءها عنده . الثانى دوام تضرعه وابتهاله فى مظان الإجابة قائلا يارب سلم سلم ، وإن أهمل هذين الأمرين فالشقاوة لازمة له اهـ بالمعنى وبالله التوفيق .

---

(١) يونس : ٦٢ .

(٢) النمل : ٨٨ .

الإشارات

ثم إذا أعطاك ما طلبت من كمال الاستقامة ونهضت إليه نادمًا على ما فاتك من الطاعة كانت نهايتك الوصول إلى الحبيب ، ومناجاة القريب ، هناك تكل الألسن عن العبارة وتنقطع الإشارة كما أبان ذلك بقوله :

[ما العارف ؟ من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته ، بل العارف من لا إشارة له لفنائه فى وجوده وانطوائه فى شهوده] .

قلت : الإشارة أرق وأدق من العبارة . والرمز أدق من الإشارة .

فالأمور ثلاثة : عبارات وإشارات ورموز ، وكل واحدة أدق مما قبلها .

فالعبارة توضح ، والإشارة تلوح ، والرمز يفرح : أى يفرح القلوب بإقبال المحبوب وقالوا : علمنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفى : أى خفى سره ، فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان ، فإشارة الصوفية هى تغزلاتهم وتلويحاتهم بالمحبوب ، كذكر سلمى وليلى وذكر الخمرة والكؤوس والنديم وغير ذلك مما هو مذكور فى أشعارهم وتغزلاتهم ، وكذكر الأقمار والنجوم والشموس والبدور واللوائح والطوالع ، وكذكر البحار والإغراق وغير ذلك مما هو مذكور فى اصطلاحاتهم .

وأما الرموز : فهى إيماء وأسرار بين المحبوب وحبيبه لا يفهمها غيرهم ، ومنها فى القرآن فواتح السور ، ومنها فى الحديث كقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر :

« أرِيدُ أَنْ أَدْعُوَكَ لِأَمْرٍ ، قَالَ : وَمَاهُوَ يَارَسُولَ الله ؟ قال : هُوَ ذاك » . فرمز لأمر بينهما لا يعرفه غيرهما .

وقال له أيضًا : « يَاأَبَا بَكْرٍ أَتَعْلَمُ يَوْمَ يَوْمَ » بتكرير لفظ يوم « قَالَ نَعَمْ يَارَسُولَ الله سَأَلْتنِي عَنْ يَوْمِ المَقَادِيرِ » فهذه رموز بين الصديق وحبيبه .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه فى شرح الحزب الكبير : وقد حارت العقول

فى رموز الحكماء فكيف بالعلماء ؟ فكيف بالأنبياء ؟ فكيف بالمرسلين ؟ فكيف يطمع فى حقائق رب العالمين اهـ .

وأما الإشارات : فيدركها أربابها من أهل الفن ، والناس فى إدراكها وعدمه على أقسام : فمنهم من لا يفهم منها شيئًا ولا يعرف إلا ظاهر العبارة ، وهم الجهال من عموم الناس . ومنهم من يفهم المقصود ويجد الحق بعد الإشارة : أى بعد سماع الإشارة ، وهم أهل البداية من السائرين . ومنهم من يفهم الإشارة ويجد المشار إليه وهو الحق أقرب إليه من إشارته ، وهم أهل الفناء فى الذات قبل التمكين : ولهذا تجدهم يتواجدون عند السماع ويتحركون وتطيب أوقاتهم وتهيم أرواحهم أكثر مما يتواجدون عند الذكر ، لأن الإشارة تهيج أكثر من العبارة ، خلاف المتمكنين قد رسخت أقدامهم واطمأنت قلوبهم وتحقق وصولهم ، فاستغنوا عن الإشارة والمشير . ولذلك قيل للجنيد : مالك كنت تتحرك عند السماع وتتواجد واليوم لا نراك تتحرك بشىء ؟ قال : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب اهـ . وهذا هو العارف الذى لا إشارة له لفنائه فى وجود الحق وانطوائه فى مشهوده .

أو تقول : لتحقق وصوله وتمكنه فى شهوده ، فصار المشير عين المشار إليه لفناء وجوده فى وجود محبوبه ، وانطواء ذاته فى ذات مشهوده .

أو تقول : لزوال وهمه وثبوت علمه ، فتحققت الوحدة وامتحقت الغيرة :

رَقَّ الزُّجاجُ وَرَاقَتِ الخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

فالأقداح أشباح ، والخمور أرواح . أو تقول : لذهاب حسه وانطماس رسمه ، فانكسرت الأوانى وسطعت المعانى :

وَطَاحَ مُقَامِى فِى الرَّوَاسِمِ كُلِّهَا
فَلَسْتُ أَرَى فِى الْوَقْتِ قُرْبًا وَلَا بُعْدا

فَنِيتُ بِـهِ عَنِّى فَبَـانَ بِـهِ عَيْبِى
فَهَذَا ظُهُورُ الْحَقِّ عِنْدَ الفَنَا قَصْدَا

أَحَاطَ بِنَا التَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَعادَتْ صِفَاتُ الْحَقِّ مِمَّا يَلِى الْعَبْدَا

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : إن لله عبادًا محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم بذاته ، وحملهم من أسراره ما تعجز عنه الأولياء .

وقال القطب الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه ونفعنا ببركاته : وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف ، والأخلاق بالإخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت ، والأفعال بالأفعال اهـ . وأطلق المزج على التبديل مناسبة للشراب .

وقال إمام الطريقة أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه فى وصف العارف : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هدايته ، وصفا شرابه من كأس وده ، تجلى له الجبار عن أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن سكت فمن الله ، وإن تحرك فإذن الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ومن الله وإلى الله اهـ .

فهذه صفات العارف الحقيقى الراسخ المتمكن ، قد كلَّ لسانه عن التعبير ، واستغنى عن الإشارة والمشير ، فإذا صدرت منه إشارة أو تعبير ، فإنما ذلك لفيضان وجد أو هداية فقير .

وقد صدرت إشارات من المتمكنين فتحمل على هذا القصد كقول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه :

أَعِنْـدَكَ عَنْ لَيْـلَى حَـدِيثٌ محـرَّرٌ
بِـإِيـرَادِهِ يُحْيِى الـرَّمِيمَ وَيَنْشُـرُ ؟

فَعَهْـدِى بِهَا العهْـدُ القَـدِيمُ وَإِنَّنِي
على كُلِّ حالٍ فِي هَوَاهَـا مُقَصِّرُ

وَقَدْ كانَ هذا اللطيفُ قِدْمًا يَزُورُنِي
وَلَمَّـا يَـزُرْ مَـا بـالُـهُ يَتَعَـذَّرُ ؟
وَهَـلْ بَخِلَتْ حتى بِطَيْفِ خَيَـالِهَـا
أَمِ اعْتَلَّ حَتَّى لَا يَصِحَّ التَّصَوُّرُ ؟
وَمِن وجْهِ لَيْلَى طَلْعَةُ الشَّمْسِ تَستضِى
وَفِى الشَّمْسِ أَبْصَارُ الْوَرَى تَتَحَيَّرُ
وماَ احْتَجَبَتْ إلَّا برَفْـعِ حِجَابِهَـا
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الـظُّهورَ تَسَـتُّرُ !

هكذا وجدت بخط الشيخ ، وكان كثيرًا ما يتمثل بها ، قاله المصنف فى لطائف المنن فقول الشيخ ما العارف إلخ : أى ليس العارف الكامل وهو الراسخ المتمكن . وأما السائر فيحتاج إلى الإشارة ويجد الحق أقرب إليه من الإشارة أو معها وهى إعانة له وقوته كالعبارة للمتوجهين ، وسيأتى : العبارة قوتٌ لعائلة المستمعين ، وليس لك إلا ما أنت له آكل ، وقوله من إذا أشار : أى أشير له ، وقوله بل العارف من لا إشارة له : أى لا يحتاج إليها فى نفسه ، وقد يشير لأجل غيره كما تقدم ، وإنما استغنى عن الإشارة ، لأن الإشارة والعبارة قوت الجائع وهو قد شبع واستغنى .

أو تقول : لأن الإشارة تقتضى البينونة والفرق ، وهو مجموع فى فرقه ، ولذلك قال الشيخ أبو يزيد رضى الله عنه ، أبعدهم من الله أكثرهم إشارة إليه .

وقال ابن العريف فى محاسنه : الإشارة نداء على رأس البعد وبوح بعين العلة اهـ . أى تصريح بعين علته وهى بعده .

وقال الروزبارى ، الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه ، وفى الحقيقة الإشارة يصحبها العلل ، والعلل بعيدة من الحقائق .

وقال الشبلى رضى الله عنه : كل إشارة أشار بها والبينونة بدليل قوله حتى

يشيروا إلى الحق بالحق ، وإنما نفى الطريق إلى ذلك الاستغناء الحق عن الإشارة والمشير ، والله تعالى أعلم ، ويحتمل أن يريد بالإشارة إشارة القلب أو الفكرة إلى الوجود ، فإن القلب إذا أشار إلى الكون بأسره فنى وتلاشى ووجد الحق أقرب إليه من إشارته لكونه كان فانيًا قبل إشارته وهذا حال السائرين .

وأما الواصل فلا يحتاج إلى إشارة لكونه قد تحقق فناؤه وانطوى وجوده فى وجود محبوبه ، فلم يحتج إلى إشارة لتمكن حاله وتحقق مقامه ، والله تعالى أعلم .

وسئل أبو سعيد بن الأعرابى عن الفناء ، فقال : هو أن تبدو العظمة والإجلال على العبد ، فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات ، والأذكار تفنيه عن كل شىء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق فى التعظيم اهـ .

الرجاء

ولما كان المطلوب من العبد القيام بوظائف العبودية ومعرفة عظمة الربوبية تشوقت القلوب إلى نيلها وطمعوا فى إدراكها ورجوا بلوغ آمالهم فيها ، فبين الشيخ علامة الرجاء الصادق من الكاذب فقال :

[**الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية**] .

قال بعض العلماء : الرجاء تعلق القلب بمطموع يحصل فى المستقبل مع الأخذ فى العمل المحصل له . وأقرب منه طمع يصحبه عمل فى سبب المطموع فيه لأجل تحصيله اهـ .

الأمنية : اشتهاء وتمن لا يصحبه عمل ، فإن كان من الحكم والجزم فهو تدبير وهو أتم قبحًا قاله الشيخ زروق .

قلت : فمن رجا أن يدرك النعيم الحسى كالقصور والحور فعليه بالجد والطاعة والمسارعة إلى النوافل والخبرات وإلا كان رجاؤه حمقًا وغروراً .

وقد قال معروف الكرخى رضى الله عنه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من

الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق .

وقيل من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح ، فكذلك فليزعم أن الربح مع الفقر ، ووقد النار من البحر صحيح ، ومن كان رجاؤه تحقيق العلوم ، وفتح مخازن الفهوم ، فعليه بالمدارسة والمطالعة ومجالسة أهل العلم المحققين العاملين مع تحليته بالتقوى والورع . قال تعالى : (وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ)[1] .

فإن فعل هذا كان طالبًا صادقًا وإلى ما رجا واصلا ، وإلا كان باطلا وبقى جاهلا .

وقد قال بعض المحققين : من أعطى كليته فى العلم أخذ كليته ، ومن لم يعط كليته لم يأخذ بعضه ولا كليته .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا العِلْمِ بِالتَّعلُّمِ ، وَإِنَمَا الحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ ، مَنْ يَطْلُبِ الْخيرَ يُؤتَهْ ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهْ » اهـ .

والذى تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ، ويشرح الصدور ويوسع المعقول ، ومن كان رجاؤه الوصول إلى إدراك المقامات وتحقيق المنازلات ، ومواجيد المحبين وأذواق العارفين ، فعليه بصحبة الفحول من الرجال أهل السر والحال ، بحط رأسه وذبح نفسه ، والأخذ فيماكلفوا به من الأعمال ، مع الذل والافتقار والخضوع والانكسار ، فإن زعم أنه لم يجدهم فليصدق فى الطلب ، فسر الله كله فى صدق الطلب ، وليستغرق أوقاته فى ذكر الله ، وليلتزم الصمت والعزلة ، وليحسن ظنه بالله وبعباد الله ، فإن الله يقيض له من يأخذ بيده : (إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُم خَيْرًا مِمّا أُخِذَ مِنْكُمْ)[2] .

قال فى القواعد : قاعدة طلب الشىء من وجهه وقصده أقرب لتحصيله ، وقد ثبت أن حقائق علوم الصوفية منح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بميعاد

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) الأنفال : ٧٠ .

الطلب ، فلزم مراعاة وجه ذلك وهو ثلاث :

أولهـا : العمل بما علم قدر الاستطاعة .

الثانى : اللجأ إلى الله على قدر الهمة .

الثالث : إطلاق النظر فى المعانى حال الرجوع لأصل السنة ، فيجرى الفهم وينتفى الخطأ ويتيسر الفتح . وقد أشار الجنيد رحمه الله تعالى إلى ذلك بقوله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال ، إنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال ، أو كما قال .

وفى الخبر عنه عليه الصلاة والسلام :

« مَنْ عَمِل بمَا عَلِم أَوْرَثَهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف العلوم ، من غير أن يؤدى إليها عالم علماً اهـ . فمن رجا أن يدرك هذه الأمور المتقدمة ، وشرعٍ فى أسبابها وتحصيل مباديها ، كان علامة على نجح مطلبه ، وكان رجاؤه صادقا . ومن طمع فيها من غير أن يأخذ بالجد فى أسباب تحصيلها كان أمنية : أى غرورًا وحمقًا .

وكان الحسن رضى الله عنه يقول : ياعباد الله اتقوا هذه الأمانى فإنها أودية النوكى يحلون فيها ، فوالله ما أتى عبد بأمنية خيرًا فى الدنيا والآخرة اهـ .

والنوكى : بفتح النون جمع أنوك ، وهو الأحمق .

ولما كان من رجا شيئاً وطمع فيه الغالب أنه يطلبه بين الشيخ خير ما يطلبه العبد ويرجوه فقال :

[مطلب العارفين من الله تعالى : الصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية] .

قلت : المطلب مصدر بمعنى المفعول أو اسم مكان : أى مطلوب العارفين ومقصودهم أو محل قصدهم ومحل نظرهم إنما هو تحقق الصدق فى العبودية بحيث لا تبقى فيهم بقية إذ المكاتب عبد مابقى عليه درهم ، فما دام العبد مسجونًا بمحيطاته ، محصورًا فى هيكل ذاته ، لا تنفك عنه الحظوظ إما دنيوية

أو أخروية ، فلا تتحقق عبوديته لله وفيه عبودية لحظوظه وهواه ، فلا يكون صادقًا فى عبوديته وهو مملوك لحظ نفسه ، فإذا قال أنا عبد الله نازعته حظوظه وهواه ، فلا تتفق عبوديته حتى يتحرر من رق الأكوان ، ويتحقق بمقام الأحرار من أهل العرفان ، فحينئذ يكون سالمًا لله حرًّا مما سواه . قال الله تعالى : (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فيهِ شُرَكاء مُتَشَاكِسُونَ) أى متخاصمون (وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)[1] .

أى لا يستويان أبدًا ، إذ العبد الخالص لسيد واحد يكون أحظى وأعز وأقرب من العبد المشترك ، وكذلك العبد الخالص لله أحظى بمحبة مولاه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَعِسَ » أى خاب وخسر : « عَبْدُ الدِّينارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخميصَة إِذا أُعْطِيَ رَضِيَ . وَإِذَا لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِس وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ » .

أى إذا أصابته شوكة فالله لا يخرجها منه بالنقش عليها ، وهو دعاء على من حطه هواه بالتنكيس ، وعدم الخروج مما يقع فيه .

وقال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه : شتان بين من همه الحور والقصور ، وبين من همه الحضور ورفع الستور ا هـ .

ولأجل هذا كان مطلب العارفين إنما هو التحقيق بالعبودية لمولاهم ، بالتحرر من رق هواهم ، والقيام بوظائف الربوبية بالأدب والتعظيم ، والإجلال لمولاهم وهما متلازمان ، فما تحقق الصدق فى العبودية إلا حصل القيام بوظائف الربوبية ، فإن النفس إذا ماتت بترك حظوظها حييت الروح ، وإذا حييت الروح عرفت ، وإذا عرفت أذعنت وخضعت لهيبة الجلال ، وهذا هو القيام بحقوق الربوبية ، وهو مراد العارفين ، ومقصود السائرين ، ومحط نظر القاصدين والطالبين . قيل لبعضهم : ما مراد العارف ؟ قال : مراد معروفه اهـ . أى لا يريد إلا ما أراد سيده ، ولا يتمنى إلا ما يقضيه عليه مولاه .

---

(١) الزمر : ٢٩ .

وقيل لبعضهم : ما تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله ، فهذا يتحقق للعارف فناؤه ، وبتحقق فنائه بقاؤه ، وأنشدوا :

لَوْ قِيلَ مَاتَمَنّى وَالْعَبْدُ يُعْطَى مُنَاهْ
لَقُلْتُ مُنْيَتُ قَلْبِى فى بَقَاه

أى بقائه مع مولاه والله تعالى أعلم .

فإذا طلب العبد من مولاه ما هو طالبه منه من استقامة ظاهرة بالنهوض إلى كمال الطاعاتِ ، والحزن على ما سلف من الغفلات ، واستقامة باطنه بمعرفة معبوده ، والفناء فى شهوده ، فيكون ظاهره قائمًا بوظائف العبودية ، وباطنه متحققًا بحقوق الربوبية .

ثم إذا أحس بإجابة المطلب ، وحصول المنى والمرغب ، فرح قلبه وانبسطت روحه ، حيث ثمت نسيم الإقبال وروح الوصال ، فربما يقبضها البسط عن شهود مولاها ، فيخرجها منه إلى القبض ، ثم يرحلها عنهما إليه كما أشار الشيخ إلى ذلك بقوله :

[بسطك كى لا يبقيك مع القبض ، وقبضك كى لا يتركك مع البسط ، وأخرجك عنهما كى لا تكون لشىء دونه] .

قلت : البسط فرح يعترى القلوب أو الأرواح ، إما بسبب قرب شهود الحبيب ، أو شهود جماله ، أو بكشف الحجاب عن أوصاف كماله ، وتجلى ذاته لهم ، أو بغير سبب . والقبض حزن وضيق يعترى القلب ، إما بسبب فوات مرغوب ، أو عدم حصول مطلوب ، أو بغير سبب ، وهما يتعاقبان على السالك تعاقب الليل والنهار ، فالعوام إذا غلب عليهم الخوف انقبضوا ، وإذا غلب عليهم الرجاء انبسطوا ، والخواص إذا تجلى لهم بوصف الجمال انبسطوا ، وإذا تجلى لهم بوصف الجلال انقبضوا ، وخواص الخواص تستوى عندهم الجلال والجمال ، فلا تغيرهم واردات الأحوال ، لأنهم بالله ولله لا لشىء سواه ، فالأولون ملكتهم الأحوال ، وخواص الخواص مالكون الأحوال ، فمن لطفه بك أيها السالك أخرجك من الأغيار ، ودفعك إلى حضرة الأسرار ، فإذا أخذك القبض وتمكن منك الخوف ، وسكنت تحت قهره ، وأنست بأمره ، أخرجك إلى

البسط ، لئلا يحترق قلبك ، ويذوب جسمك ، فإذا حبسك البسط وفرحت به وأنست بجماله ، قبضك لئلا يتركك مع البسط ، فتسيء الأدب ، وتجر إلى العطب ، إذ لا يقف مع الأدب فى البسط إلا القليل ، هكذا يسيرك بين شهود جلاله وجماله ، فإذا شهدت أثر وصف الجلال انقبضت ، وإذا شهدت أثر وصف الجمال انبسطت ، ثم يفتح لك الباب ، ويرفع بينك وبينه الحجاب ، فتتنزه فى كمال الذات وشهود الصفات ، فتغيب عن أثر الجلال والجمال ، بشهود الكبير المتعال ، فلا جلاله يحجبك عن جماله ، ولا جماله يحجبك عن جلاله ، ولا ذاته تحبسك عن صفاته ، ولا صفاته تحبسك عن ذاته . تشهد جماله فى جلاله وجلاله فى جماله ، وتشهد ذاته فى صفاته وصفاته فى ذاته ، أخرجك عن شهود أثر الجلال والجمال ، لتكون عبدًا لله فى كل حال ، أخرجك عن شيء لتكون حرًّا من كل شيء ، وعبدًا له فى كل شيء وأنشدوا :

حَـرَام عَـلَى مَنْ وَحَّـدَ اللهَ رَبَّـهُ
وَأَفْـرَدَهُ أَنْ يَحْتَـذِى أَحَـدًا رِفْـدَا
فَيَا صَاحِبى قِفْ بِى عَلَى الْحقِّ وَقْفَةً
أَمُوتُ بِهَا وَجْدًا وأَحْيَا بِهَا وَجْدًا
وَقُلْ لِمُلُوكِ الأَرْضِ تَجْهَدَ جُهْدَهَا
فَذَا الْمُلْكُ مُلْك لَا يُبَاحُ وَلَا يُهْدَى

قال فارس رضى الله عنه : القبض أولا ، ثم البسط ثانيًا ، ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط لمعان فى الوجود . وأما مع الفناء والبقاء فلا اهـ .

آداب القبض والبسط

واعلم أن القبض والبسط لهما آداب ، فإذا أساء فيهما الأدب طرد إلى الباب ، أو إلى سياسة الدواب . فمن آداب القبض : الطمأنينة والوقار ، والسكون تحت مجارى الأقدار والرجوع إلى الواحد القهار ، فإن القبض شبيه بالليل ، والبسط شبيه بالنهار ، ومن شأن الليل الرقاد والهدوّ والسكون والحنو . فاصبر أيها المريد واسكن تحت ظلمة ليل القبض حتى تشرق عليك شموس نهار البسط ، إذ لابد لليل من تعاقب النهار ، ولابد للنهار من تعاقب الليل :

(يُولِجُ اللَّيْلَ فى النَّهَار وَيُولِجُ النَّهَارَ فى اللَّيْلِ)[1] .

هذه آداب القبض الذى لا تعرف له سببًا . وأما إن عرفت له سببًا فارجع فيه إلى مسبب الأسباب . ولُذْ بجانب الكريم الوهاب ، فهل عوّدك إلا حسنًا ؟ وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟ فالذى واجهتك منه الأقدار هو الذى عودك لحسن الاختيار ، فالذى أنزل الداء ، هو الذى بيده الشفاء ، يامهمومًا بنفسه لو ألقيتها إلى الله لاسترحت ، فما تجده القلوب من الأحزان ، فلأجل ما منعته من الشهود والعيان .

والحاصل : أن سبب القبض إنما هو النظر للسِّوى والغفلة عن المولى ، وأما أهل الصفا فلا يشهدون إلا الصفا ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يقول : « مَنْ أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ فَلْيَقُلْ : الله الله لا أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ الله يُذْهِبُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ » .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، والحديث صحيح .

فانظر كيف دل عليه الصلاة والسلام المقبوض إلى الدواء وهو شهود التوحيد . والغيبة عن الشرك ، فدلنا صلى الله عليه وسلم على القول والمراد

---

(١) الحديد : ٦ .

منه المعنى ، فكأنه قال اعرفوا الله ووحدوه ينقلب قبضكم بسطًا ونقمتكم نعمة ، وكذلك فى حديث آخر قال :

« مَا قَالَ أَحَدٌ : اللَّهُمَّ إِنِّى عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِى بِيَدِكَ مَاضٍ فِىَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِىَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفسكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فى كِتابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فى عِلْمِ الغيبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القرْآنَ العَظِيم رَبِيع قلبى ، وَنورَ بَصَرِى ، وَجَلَاء حُزنِى ، وَذَهَابَ هَمِّى وَغَمِّى ، إلّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ ، وَأَبْدِلَ مَكان هَمِّهِ فَرَحاً وَسُرُورًا » .

فدلهم أولا فى الحديث الأول على شهود الربوبية ، وفى الحديث الثانى على القيام بوظائف العبودية ، وهو الصبر والرضا ، إذ من شأن العبد أن يصبر على أحكام سيده ، ويسلم ويرضى لما يجريه عليه من أوصاف قهره .

ومن آداب البسط كف الجوارح عن الطغيان ، وخصوصًا جارحة اللسان ، فإن النفس إذا فرحت بطرت وخفتْ ونشطت ، فربما تنطق بكلمة لا تلقى لها بالا فتسقط فى مهاوى القطيعة بسبب سوء أدبها ، ولذلك كان البسط مزلة أقدام ، فإذا أحس المريد بالبسط ، فليلجم نفسه بلجام الصمت ، وليتحل بحلية السكينة والوقار ، وليدخل خلوته ، وليلتزم بيته ، فمثل الفقير فى حالة البسط والقوة كقدر غلى وفار ، فإن تركه يغلى اهراق إدامه وبقى شاحتًا ، وإن كفه وأخمد ناره بقى إدامه تامًّا ، كذلك الفقير فى حالة القوة والبسط يكون نوره قويًّا وقلبه مجموعًا ، فإذا تحرك وبطش وتتبع قوته برد ورجع لضعفه ، وما ذلك إلا لسوء أدبه ، والله تعالى أعلم .

ولأجل هذا كان العارفون يخافون من البسط أكثر من القبض كما نبه عليه بقوله :

[العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا] .

قلت : كل من فتح عليه فى شهود المعانى فهو عارف ، فإن تمكن من شهود المعنى على الدوام فهو واصل متمكن ، وإلا فهو سائر ، وإنما كان العارف إذا

انبسط أخوف منه إذا انقبض ، لأن القبض من شأنه أن يقبض النفس عن حظوظها ، ومن شأنه أيضًا السكون ، والسكون كله أدب ، ومن شأن البسط أن يبسط النفس وينشطها ، فربما تبطش لما فيه حظها ، فتزل قدم بعد ثبوتها بسبب قلة آدابها ، ولذلك قال .

[ولا يقف على حدود الأدب فى البسط إلا قليل] .

قلت : وهم أهل الطمأنينة والتمكين ، لأنهم كالجبال الرواسى ، لا يحركهم قبض ولا بسط ، فهم مالكون الأحوال ، لا يخرجهم القبض ولا البسط عن حالة الاعتدال بخلاف السائرين وإن كانوا عارفين ، فإنهم ربما تؤثر فيهم الواردات ، فيرد عليهم وارد البسط فيخرجهم عن حد الأدب ، وقد قيل : قف على البساط ، وإياك والانبساط .

وقال رجل لأبى محمد الحريرى رضى الله عنه : كنت على بساط الأنس وفتح علىّ طريق البسط ، فزللت زلة فحجبت عن مقامى ، فكيف السبيل إليه ؟ دلنى على الوصول إلى ما كنت عليه ، فبكى أبو محمد وقال : ياأخى الكل فى قهر هذه الخطة ، لكنى أنشدك أبياتًا لبعضهم وأنشد يقول :

قِفْ بالدِّيَارِ فَهذِهِ آثَارُهُمْ تَبْكِى الأحبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِرَبْعِهاَ مُسْتَخْبِراً عَنْ أَهْلِهَا أَوْ سَائِلاً أَوْ مُشْفِقا
فَأَجَابَنِي دَاعِى الْهَوَى فى رَسْمِها فارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعِزَّ الْمُلْتَقَى

ثم علل عدم الوقوف على حدود الأدب فى البسط فقال :

[البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح ، والقبض لاحظ للنفس فيه].

قلت : لأن البسط جمال ، والقبض جلال ، ومن شأن الجمال أن يأتى بكل جمال ، وأين هو الجمال ؟ ثم هو عين الجلال ، أين هو حبيبك ؟ ثم هو عدوك أين هو الربح ؟ ثم هو الخسارة ، ومعنى ذلك أنه الموضع الذى يلائم النفس ويليق بها ، ثم هو خسارة القلب وحجاب الروح ، لأن الموضع الذى تحيا به النفس يموت فيه القلب ، والموضع الذى تموت فيه النفس يحيا به القلب

والروح ، ولذلك قال ابن الفارض رضىَ الله عنه :

المـوْتُ فِيـهِ حَيَـاتِي وَفِى حَـيَـاتِيَ قَـتْـلى

وقال الششترى رضى الله عنه :

إنْ تُرِدْ وَصْلَنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لا يَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فيهِ فَضْلَهْ

وكتب يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله إلى الجنيد رضى الله عنه ، لا أذاقك الله طعم نفسك ، فإنك إن ذقتها لا تذق بعدها خيرًا أبدًا اهـ .

وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه : القبض حق الحق منك ، والبسط حقك منه ، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك اهـ . وهذا كله فى حق السائرين ، وأما الواصلون المتمكنون فلا يؤثر فيهم جلال ولا جمال ، ولا يحركهم قبض ولا بسط كما تقدم ، لأنهم بالله ولله ومن الله وإلى الله . بالله تصرفهم ، ولله عبوديتهم ، ومن الله ورودهم ، وإلى الله صدورهم ، لأنهم لله لا لشىء دونه . قال الجنيد رضى الله عنه : الخوف يقبضنى ، والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى ، والحق يفرقنى ، إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى علىّ ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى ، فغطانى عنه ، فهو فى كل ذلك محركى غير مسكنى ، وموحشى غير مؤنسى ، بحضورى لذوق طعم وجودى ، فليته أفنانى عنى ، فمتعنى أو غيبنى عنى فروحنى اهـ .

قوله رضى الله عنه : الخوف يقبضنى ، لأن العبد فى حالة الخوف يشهد ما منه إلى الله من الإساءة فينفتح له باب الحزن ، وفى حالة الرجاء يشهد ما من الله إليه من الإحسان فينفتح له باب الرجاء والبسط .

وقوله : والحقيقة تجمعنى : أى تغنينى عن نفسى وتجمعنى به ، فلا تشهد إلا ما من الله إلى الله ، فلا قبض ولا بسط .

وقوله : والحق يفرقنى ، المراد بالحق الحقوق اللازمة للعبودية ، فلا ينهض إليها إلا بشهود نوع من الفرق ، وإن كان نهوضه بالله .

وقوله : إذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، أى إذا تجلى لى باسمه الجليل ذاب

جسمى من هيبة المتجلى ، وإذا بسطنى بالرجاء بأن تجلى لى باسمه الجميل أو الرحيم رد نفسى ووجودى على ، وإذا جمعنى إليه بشهود الحقيقة أحضرنى معه بزوال وهمى ، وإذا فرقنى بالحق الذى أوجبه على للقيام بوظائف حكمته أشهدنى غيرى ، حتى يظهر الأدب منى معه ، وقد يقوى الشهود فلا يشهد الأدب إلا منه إليه .

وقوله : فغطانى عنه ، لأن العبد فى حالة النزول إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ قد يرجع لمقام المراقبة لكنه غير لازم وسيأتى للمؤلف ، بل نزلوا فى ذلك بالله ومن الله وإلى الله ، فعلى هذا لا تغطية للعبد فى حالة النزول للحق أصلا .

وقوله : فهو فى كل ذلك محركى غير مسكنى ، يعنى أن الحق تعالى حين يقبضه بالخوف ، أو يبسطه بالرجاء ، أو يجمعه بالحقيقة ، أو يفرقه بالحق ، هو محرك له ليسيره إليه ويحوشه إليه ، غير مسكن له فى مقام واحد ، وموحشه عن عالم نفسه ، غير مؤنس له بها بسبب حضوره مع عوالمه البشرية ، فيذوق طعم وجودها فإذا غيَّبَه عنه عرف قدر ما منَّ به عليه ، ولذلك قال : فليته أفنانى عنى ، أى عن رؤية وجودى فمتعنى بشهودة أو غيبنى عن حسى . فروحنى من الحقوق التى تفرقنى عنه بإسقاطها عنى فى حالة الغيبة ، وكأنه مال إلى طلب السلامة خوفًا من الوقوع فيما يوجب الملامة وإن كان الكمال هو الجمع بين العبودية وشهود الربوبية ، والله تعالى أعلم .

أسباب القبض والبسط

ثم ذكر أسباب القبض والبسط وهو العطاء والمنع فى الغالب فقال :

[**ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك**] .

قلت : الغالب على النفس الأمّارة واللوامة أن تنبسط بالعطاء وتنقبض بالمنع ، لأن فى العطاء متعتها وشهوتها ، فلا جرم أنها تنبسط بذلك ، وفى المنع قطع موادها وترك حظوظها ولاشك أنها تنقبض بذلك ، وذلك لجهلها بربها وعدم فهمها . فلو فهمت عن الله لعلمت أن المنع عين العطاء والعطاء عين المنع كما يأتى ، فافهم أيها الفقير عن مولاك ، ولا تتهمه فيما به أولاك .

فربما أعطاك ما تشتهيه النفوس فمنعك بذلك حضرة القدوس ، وربما منعك ما تشهيه نفسك ، فيتم بذلك حضورك وأنسك .

ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها ، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها ، وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها ، فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها .

ربما أعطاك قوت الأشباح ، فمنعك قوت الأرواح ، وربما منعك قوت الأشباح فمتعك بقوت الأرواح .

ربما أعطاك إقبال الخلق ، فمنعك من إقبال الحق ، وربما منعك من إقبال الخلق فأعطاك الأنس بالملك الحق .

ربما أعطاك العلوم ، وفتح لك مخازن الفهوم ، فحجبك بذلك عن شهود المعلوم ، ومعرفة الحى القيوم ، وربما منعك من كثرة العلوم ، وأعطاك الأنس بالحى القيوم ، فأحطت بكل مجهول ومعلوم .

ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة ، وربما منعك من عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة .

ربما أعطاك التعزز بالخلق ، ومنعك من التعزز بالحق ، وربما منعك من التعزز بالخلق ، وأعطاك التعزز بالملك الحق .

ربما أعطاك خدمة الكون ، فمنعك من شهود المكون ، وربما منعك من خدمة الكون ، وأعطاك شهود المكون .

ربما أعطاك التصرف فى الملك ، ومنعك دخول الملكوت ، وربما منعك من التصرف فى الملك ، ومنحك شهود الملكوت .

ربما أعطاك أنوار الملكوت ، ومنعك الترقى إلى بحر الجبروت ، وربما حجب عنك أنوار الملكوت ، فأعطاك الدخول إلى حضرة الجبروت .

ربما أعطاك القطبانية ، ومنعك التمتع بشهود الفردانية ، وربما منعك القطبانية ، ومتعك بشهود سر الوحدانية ، إلى غير ذلك مما لا يحصيه إلا علام الغيوب .

قال ابن العربى الحاتمى رضى الله عنه : إذا مُنعتَ فذاك عطاؤه ، وإذا أُعطيتَ فذاك منعه ، فاختر الترك على الأخذ ا . هـ وشاهده قوله تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم)[1] الآية :

فإذا فهمت هذا علمت أن المنع هو العطاء كما بينه بقوله :

[متى فتح لك باب الفهم فى المنع عاد المنع هو عين العطاء] .

قلت : إذا فهمت أيها العبد عن الله بعد تحققك برحمته ورأفته وكرمه وجوده ونفوذ قدرته وإحاطة علمه ، علمت أنك إذا سألته شيئًا أو هممت بشىء أو احتجت إلى شىء ، فمنعك منه ، فإنما منعك ذلك رحمة بك وإحسانًا إليك ، إذ لم يمنعك من بخل ولا عجز ولا جهل ولا غفلة ، وإنما ذلك حسن نظر إليك ، وإتمام لنعمته عليك ، لكونه أتم نظر وأحمد عاقبة (وعَسَى أَنْ تكْرهُوا شَيئًا وهُو خَيرٌ لكُم وعَسَى أَنْ تحبُّوا شَيْئًا وهُو شَرٌّ لكُم واللهُ يعْلَم وأنتمُ لا تعْلمُونَ)[1] فربما دبرنا أمرًا ظننا أنه لنا فكان علينا . وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد، والشدائد من وجوه الفوائد ، وربما كمنت المنن فى المحن ، والمحن فى المنن ، وربما انتفعنا على أيدى الأعداء ، وأوذينا على أيدى الأحباء ، وربما تأتى المسارّ من حيث المضار وقد تأتى المضار ، من حيث المسار .

ولأبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فى حزبه : اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ؟ فمتى فتح لك أيها المريد باب الفهم عنه فى المنع ، وعلمت ما فيه من الشر والخير ، وحسن النظر لك عاد المنع فى حقك هو عين العطاء .

ومثال ذلك : كصبى رأى طعامًا حسنًا أو حلواء أو عسلا وفيه سم ، وأبوه عالم بما فيه ، فكلما بطش الصبى لذلك الطعام رده أبوه ، فالصبى يبكى عليه لعدم علمه ، وأبوه يرده بالقهر لوجود علمه ، فلو عقل الصبى ما فيه ما بطش إليه ولعلم نصح أبيه وشدة رأفته به .

ومثال آخر : كرجل صنع طعامًا جيدًا وعمل فيه بصاقًا ومخاطًا أو قذرًا وأتى به لمن لا يعرفه ، فكل من رآه ولم يعرف ما فيه بطشت نفسه إليه ، فلو علم ما فيه ما بطشت نفسه . فإذا نهاه عنه من علم ما فيه اتهمه لعدم فهمه ، كذلك العبد يبطش للدنيا أو الرياسة أو غير ذلك مما فيه ضرره ، فيمنعه الحق تعالى

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ .

منه رحمة به وشفقة عليه واعتناء به . فإذا فهم من الله سلم الأمر إلى مولاه ، ولم يتهمه فيما أبرمه وقضاه . وإذا لم يفهم عن الله تحسر وربما سخط ، فإذا انكشف له سر ذلك بعد علم ما كان فى ذلك من الخير ، لكن فاتته درجة الصبر ، لقوله عليه الصلاة والسلام :« إنّما الصَّبرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الاولى » .

وانظر قضية الرجل الذى كان يسكن فى البادية وكان من العارفين ، فاتفق له ذات يوم أن مات حماره وكلبه وديكه ، فأتى إليه أهله ، فقالوا له حين مات الحمار : مات حمارنا ، فقال : خير ، ثم قالوا : مات الكلب ، فقال : خير ، ثم قالوا له : مات الديك ، فقال : خير ، فغضب أهل الدار وقالوا : أى خير فى هذا ؟ متاعنا ذهب ونحن ننظر ، فاتفق أن بعض العرب ضربوا على ذلك الحى فى تلك الليلة فاجتاحوا كل ما فيه ، وكانوا يستدلون على الخيام بنهيق الحمار ونباح الكلاب وصراخ الديكة ، فأصبحت خيمته سالمة إذ لم يكن بقى من يفضحها .

فانظر كيف كان حسن نظر الحق لأوليائه وحسن تدبيره لهم ؟ وكيف فهم الرجل العارف ما فى ذلك من السر فى أول مرة ؟ فهذا هو الفهم عن الله ، رزقنا الله من ذلك الحظ الأوفر آمين .

قال الشبلى : الصوفية أطفال فى حجر الحق تعالى اهـ . يعنى أنه يتولى حفظهم وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم ولا يكلهم إلى أنفسهم ، والله تعالى أعلم .

سبب عدم الفهم عن الله

وسبب عدم الفهم عن الله هو الوقوف مع ظواهر الأشياء دون النظر إلى بواطنها كما أبان ذلك بقوله :

[**الأكوان ظاهرها غرة ، وباطنها عبرة**] .

قلت : الغرة بكسر الغين وقوع الغرور ، وإنما كانت الأكوان ظاهرها غرة لوجهين :

الوجه الأول : ما جعل الله سبحانه على ظاهر حسها من البهجة وحسن

المنظر ، وما تشتهيه النفوس من أنواع المآكل والمشارب والملابس والمراكب ، وشهوة المناكح والمساكن والبساتين والرياضات ، وكثرة الأموال والبنين ، وكثرة الأصحاب والعشائر والأجناد والعساكر ، وغير ذلك من بهجتها وزهرتها وزخرفها ، فانكب جلّ الناس على الاشتغال بجمعها وتحصيلها ، والجرى عليها الليل والنهار والشهور والأعوام ، حتى هجم عليها هادم اللذات ، فأعقبهم الندم والحسرات ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم .

سافروا بلا زاد ، وقدموا على الملك بلا تأهب ولا استعداد ، فاستوجبوا من الله الطرد والبعاد ، ولأجل هذا حذر الله سبحانه وتعالى من غرورها وزخرفها ، والوقوف مع ظاهرها . قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ وَالبَنِينَ) الآية .

ثم قال : (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ منْ ذلِكُمْ لِلذِينَ اتَّقوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِين فيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله وَالله بَصِيرٌ بِالعِبَادِ)[1] .

وقال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا)[2] .

أى لنختبرهم أيهم أزهد فيها ؟ وقال تعالى لنبيه ﷺ :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) أى أصنافًا منهم (زَهْرَةَ الحيَاةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيه)[3] .

وسئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقال :

« الذينَ نَظرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ الناسُ إِلَى ظَاهِرِهاَ ، وَاهْتمُّوا بآجِلِ الدُّنْيَا حِينَ اهْتَمَّ الناسُ بِعَاجِلِهَا ، فأَمَاتُوا مِنْهَا مَاخَشَوْا

(١) آل عمران : ١٤ ، ١٥ . (٢) الكهف : ٧ . (٣) طه : ١٣١

أَنْ يميتَهُمْ ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَاعَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكَهُمْ ، فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِها عَارِضٌ إلَّا رَفَضُوهُ ، وَلَا خَادَعَهُمْ مِنْ رِفْعتِهَا خَادِعٌ إلّا وَضَعُوهُ ، خَلَقَت الدُّنْيَا فى قُلُوبهِمْ فَلَمْ يُجَدِّدُوهاَ ، وَخَرَّبَتْ بُنْيَانَهُمْ فَمَا يَعْمُرُونَها ، وَمَاتَتْ فى صُدُورِهِم فَمَا يُحْيُونَها بَلْ يَهْدِمُونَهَا فَيَبْنُونَ بهَا آخِرَتَهُمْ ، وَيَبِيعُونَهَا لِيَشْتَرُوا بهاَ ماَ يَبْقَى لَهُمْ ، ونَظَرُوا إلَى أَهْلِهاَ صَرْعَى قَدْ خَلَتْ بهِمُ المَثُلاتُ ، فَمَا يَرَوْنَ أَمَانًا دُون مايَرْجُونَ ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَايَجِدونَ » اهـ .

وقال على كرم الله وجهه فيما كتبه إلى سلمان الفارسى رضى الله عنه : إنما مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها قاتل سمها ، فأعرض عنها وعما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها ، ودع عنك همومها لما تيقنت من فراقها ، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون منها ، فإن صاحبها كلما اطمأن فيها إلى سرور أشخص منها إلى مكروه اهـ .

فقد جعل الحق سبحانه هذه الأكوان وهى الدنيا وما اشتملت عليه ، ظاهرها فتنة وباطنها عبرة ، فمن وقف مع ظاهرها كان مغرورًا ، ومن نفذ إلى باطنها كان عند الله مبرورًا ، فأهل الغفلة والبطالة وقفوا مع متعة عاجلها وبهجة ظاهرها ، فغرتهم بزخرفها وخدعتهم بغرورها حتى أخذتهم بغتة ، وأهل اليقظة والحزم نفذوا إلى باطنها فعرفوا سرعة ذهابها وقلة بقائها ، فاشتغلوا بجمع الزاد ، وتأهبوا ليوم المعاد ، أولئك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكان السلف الصالح إذا أقبلت الدنيا قالوا ذنب عجلت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر قالوا مرحبًا بشعار الصالحين .

الوجه الثانى : إنما جعل الله سبحانه الأكوان ظاهرها غرة ، تغطية لسره وإظهاراً لحكمته ، وذلك أن الحق سبحانه لما تجلى فى مظاهر خلقه غطى سره بظهور حكمته .

أو تقول : الأكوان ظاهرها ظلمة وباطنها نور ، فمن وقف مع الظلمة كان محجوبًا ، ومن نفذ إلى شهود النور كان عارفًا محبوبًا .

أو تقول : الأكوان ظاهرها حس وباطنها معنى ، فمن وقف مع الحس كان جاهلا ، ومن نفذ إلى المعنى كان عارفًا .

أو تقول : الأكوان ظاهرها ملك وباطنها ملكوت ، فمن وقف مع الملك كان من عوام أهل اليمين ، ومن نفذ إلى شهود الملكوت كان من خواص المقربين .

وقد أشرت إلى ذلك فى قصيدتى التائية حيث قلت :

إذَا حُبِسَتْ نَفْسٌ فى سِجْنِ الهَوَى الَّذى
تَقَيَّدْ بِهِ العَقْلُ فى قَهْرِ قَبْضَةِ
وَأَشْغَلَهَا عِلْمُ الصِّوَانِ لِحِكْمَةٍ
فَلَمْ تَرَ إلّا الْكَوْنَ فى كُلِّ وِجْهَةِ
فَذلكَ عَيْنُ المُلْكِ وَهْمٌ ثُبُوتُهُ
وَنَاظِرُهُ مَحْجُوبٌ فى سِجْنِ ظُلْمَةِ
وَإنْ نَفَذَتْ رَوحُ المُقَدَّسِ سِرُّهُ
إلَى دَرْكِ نُورِ الحَقِّ فَاضَ بِقُدْرَةِ
فَذَا مَلَكُوتُ اللهِ يُسْمَى لِوُسْعِهِ
وَعَارِفُهُ يَحْظَى بِفَتْحِ بَصِيرَةِ

والله تعالى أعلم .

ثم بين الشيخ الواقف مع الظواهر والنافذ إلى البواطن فقال :

[فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها ، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها] .

قلت : إنما كانت النفس تنظر عبرتها إلى ظاهر غرتها ، لما فيها من متعة شهوتها وحظوظها ، فلا يخرجها عن ذلك ، إلا شوق مقلق أو خوف مزعج ، أو عناية ربانية ، إما بواسطة شيخ كامل له إكسير يقلب به الأعيان ، أو بغير واسطة : (وَاللهُ ذُو الفضْلِ العَظيم)[1] .

---

(١) الحديد : ٢٩ .

وإنما كان القلب ينظر إلى باطن عبرتها لما فيه من نور العرفان : الذى يفرق بين الحق والباطل ، ويميز بين النافع والضار ، وهو ثمرة التقوى والتصفية .

أو تقول : لما فيه من عين البصيرة التى لا ترى إلا المعانى ، بخلاف عين البصر لا ترى إلا الحس . فتحصل أن أهل النفوس وقفوا مع ظواهر الأشياء ، واغتروا بعاجلها ولم يهتموا بآجلها ، فحجبوا عن العمل ، وغرهم الأمانى وطول الأمل .

وفى مثلهم ورد الخبر عن سيدنا عيسى عليه السلام كان يقول : ويلكم ياعلماء السوء ، مثلكم كمثل قناة حشٍّ ظاهرها جصٌّ وباطنها نتن اهـ . والحش : هو بيت الخلاء .

وأهل القلوب لم يقفوا مع ظواهر الأشياء ، بل نفذوا إلى بواطنها واهتموا بآجلها ، ولم يغتروا بعاجلها ، فاشتغلوا بالجد والاجتهاد ، وأخذوا فى الأهبة والاستعداد ، وهم العباد والزهاد ، وأهل الأرواح والأسرار لم يقفوا مع الأكوان لا ظاهرها العاجل ولا باطنها الآجل ، بل نفذوا إلى نور الملكوت ، فاشتغلوا بتطهير القلوب ، والتأهب لحضرة علام الغيوب ، حتى صلحوا للحضرة ، وتنزهوا فى رياض الفكر والنظرة .

(أُولٰئكَ حِزْبُ اللهِ ألاَ إنَّ حِزْبَ الله هُمُ المُفْلِحون)[1] (أولٰئكَ المُقَرَّبُونَ * فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ)[2] ، (فى مَقْعَد صدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ)[3] جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

وهؤلاء ومن تعلق بهم هم الأعزاء عند الله ، تعززوا بطاعة العزيز فعزهم العزيز كما أشار إلى ذلك بقوله :

[إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى فلا تستعزن بعز يفنى] .

قلت : العز الذى لا يفنى ، هو العز بالله والغنى بطاعة الله ، أو بالقرب ممن تحقق عزه بالله فالعز بالله يكون بتعظيمه وإجلاله ، وهيبته ومحبته ومعرفته ، وحسن الأدب معه فى كل شىء وعلى كل حال ، ويكون بالرضا بأحكامه ، والخضوع تحت قهر جلاله وكبريائه ، وبالحياء والخوف منه ، ويكون بالذل

---

(١) المجادلة : ٢٢ (٢) الواقعة : ١١ ، ١٢ . (٣) القمر : ٥٥ .

والانكسار كما قال الشاعر :

تَـذَلَّـلْ لِمَنْ تَهْـوَى لِتَكْسِبَ عِـزَّةً
فَكَمْ عزَّةٍ قَدْ نالَهاَ المَرْء بِالـذُّلِّ
إذَا كانَ مَنْ تَهْوى عَزِيزًا وَلَم تَكُنْ
ذَلِيلاً لَهُ فَاقْرِ السَّلامَ عَلَى الْوَصْلِ

وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : والله ما رأيت العز إلا فى الذل . وقال شيخ شيخنا مولاى العربى : وأنا أقول : والله ما رأيت الذل إلا فى الفقر ، يعنى أن الشيخ فسر الذل بالفقر ، إذ لا يتحقق ذل الإنسان إلا بالفقر فهو ذل الذل ، لأن النفس تموت بالفقر ولا يبقى لها عرق أصلا ، والله أعلم .

وأما العز بطاعة الله فهو بالمبادرة لامتثال أمره واجتناب نهيه ، والإكثار من ذكره وبذل المجهود فى تحصيل بره .

وأما العز بالقرب ممن تحقق عزه بالله فيكون بصحبتهم وتعظيمهم وخدمتهم وحسن الأدب معهم ، وهذا فى التحقيق يرجع إلى التعزز بالله بكونه وسيلة إليه ، فإذا تحقق بالله استغنى بعز الله عن عز غيره فمن حصل هذا العز وتحقق به ، فقد تعزز بعز لا يفنى أبدًا ينسحب عليه وعلى أولاده وأولاد أولاده إلى يوم القيامة . قال تعالى :

(مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلهِ العِزَّةُ جميعًا)(١) وقال تعالى : (وَمَنْ يَتولَّ الله وَرَسُولَهُ وَالذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ الله هُم الغالِبُونَ)(٢) .

والمراد بالذين آمنوا هم الأولياء أهل الإيمان الكامل . وقال تعالى : (وَلله العِزَّةُ وَلرسُولِهِ وللمؤمنين وَلَكنَّ المُنَافِقِين لا يَعْلَمُونَ)(٣) .

وقال سيدنا على كرم الله وجهه : من أراد الغنى بغير مال ، والكثرة بغير

---

(١) فاطر : ١٠ .   (٢) المائدة : ٥٦ .   (٣) المنافقون : ٨ .

عشيرة ،فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة اهـ . فمن تحقق عزه بالله لم يقدر أحد أن يذله .

وانظر قضية الرجل الذى أمر هارون الرشيد بالمعروف فحنق عليه ، فقال : اربطوه مع بغلة سيئة الخلق لتقتله ، فلم تقض فيه شيئًا ثم قال : اسجنوه وطينوا عليه البيت ففعلوا ، فرئى فى بستان فأتى به فقال له : من أخرجك من السجن ؟ فقال : الذى أدخلنى البستان ، فقال : ومن أدخلك البستان ؟ فقال الذى أخرجنى من السجن ، فعلم هارون أنه لم يقدر على ذله ، فأمر هارون أن يركب على دابة وينادى عليه : ألا إن هارون أراد أن يذل عبدًا أعزه الله فلم يقدر اهـ .

وأما التعزز بالعز الذى يفنى ، فهو التعزز بالمخلوق : كتعزز ملوك الجور ومن انتسب إليهم بكثرة الأتباع والأجناد ، وبالعصى والقهر ، وكالتعزز بالأموال والجاه فى غير محله والرياسة ، وغير ذلك مما ينقطع ويبيد ، فمن تعزز بهذا مات عزه واتصل ذله ، فإن التعزز بالمخلوق قطعًا يعقبه الذل عاجلا وآجلا .

وانظر قضية الرجل الذى تكبر فى الحرم ، فصار بعد ذلك يتكفف الناس وقال إنى تكبرت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى فى موضع ترتفع فيه الناس ، ذكر القضيتين فى التنبيه : ويقال لمن تعزز بالمخلوق :

(أُنْظُرْ إلى إِلٰهِكَ الذِى ظَلْتَ عَلَيْه عَاكِفًا لَنحَرِّقَنهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليَمِّ نَسْفًا)[1] .

ودخل عارف على رجل يبكى ، فقال له : وما يبكيك ؟ فقال له : مات أستاذى ، فقال له : ولم جعلت أستاذك من يموت ؟ فنبهه على رفع همته وإنفاذ بصيرته ، وقد مات شيخه قبل أن يرشد ، والله تعالى أعلم .

فإن أردت أيها المريد أن يكون لك عز لا يفنى ، فاستعز بالله وبطاعة الله وبالقرب من أولياء الله ، ولا تستعزن بعز مخلوق يفنى ، فإن من تعزز بمن يموت مات عزه . قال الله تعالى :

---

(١) طه : ٩٧ .

(أَيبتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا)[1] .

وقال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق .

تنبيه وإرشاد : اعلم أن سبب العز الذى يعطيه الله لأوليائه هو حبه لهم ، فالعز نتيجة الحب ، ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فأَحِبَّهُ فَيحبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى جِبْرِيلُ فى السَّمواتِ : إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّه أَهْلُ السَّماءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبولُ فى الأَرْضِ فَيحبُّهُ أَهْلُ الأَرْضِ » .

وفى رواية : « يُلْقَى لَهُ الْقَبُولُ فى الماء فَيَشْرَبُهُ الناسُ فَيُحِبُّونَهُ جَمِيعًا » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وسبب حب الله للعبد هو زهده فى الدنيا ، ففى حديث الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« ازْهَدْ فى الدُّنْيَا يُحِبَّكَ الله ، وَازْهَدْ فيما فى أَيْدِى النَّاس يُحِبَّكَ النَّاسُ » .

ثم اعلم أن هذا العز الذى يعطيه الله لأوليائه لا يكون فى بدايتهم ولا فى أول أمرهم ، لئلا يفتنهم الخلق عن الوصول إلى الحق ، بل من لطف الله بهم وإغارته عليهم ، أن ينفر عنهم الخلق أو يسلط عليهم حتى يتخلصوا من رق الأشياء ويتحققوا بالوصول والتمكين فحينئذ إن شاء أظهر عزهم لينفع بهم عباده ويهدى بهم من شاء من خلقه ، وإن شاء أخفاهم واستأثر بعزهم حتى يقدموا عليه ، فينشر عزهم ويظهر مكانتهم فى دار لافناء لها . وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله .

---

(١) النساء : ١٣٩ .

الطىّ عند الصوفية

ثم ذكر الشيخ سبب العز الذى لا يفنى وهو الزهد فى الدنيا كما ذكرنا فقال :
[**الطى الحقيقى أن تطوى مسافة الدنيا عنك ، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منك**] .

قلت : الطى هو اللف والضم ، بحيث يصير الطويل قصيرًا والكبير صغيرًا، يقال طويت الثوب أى ضممته . وينقسم عند الصوفية إلى أربعة أقسام : طى الزمان ، وطى المكان ، وطى الدنيا ، وطى النفوس .

فأما طى الزمان : فهو أن يقصر فى موضع ويطول فى موضع آخر ، كمن مر عليه سنون فى موضع وفى موضع آخر ساعة أو يوم ، كالرجل الذى خرج يغتسل فى الفرات يوم الجمعة قرب الزوال ، فلما فرغ من غسله لم يجد ثيابه ، فسلك طريقًا حتى دخل مصر ، فتزوج فيها وولد له أولاد وبقى سبع سنين ، ثم ذهب يغتسل يوم الجمعة بنيل مصر ، فلما فرغ فإذا ثيابه الأولى ، فسلك طريقا فإذا هو ببغداد قبل صلاة الجمعة من ذلك اليوم الذى خرج فيه والحكاية مطولة للفرغانى فى شرح التائية .

وأما طى المكان : فمثاله أن يكون بمكة مثلا . فإذا هو بغيرها من البلدان ، وهذا مشهور لأولياء الله ، قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : والله ما صار الأولياء من قاف إلى قاف حتى يلقوا رجلا مثلنا ، فإذا لاقوه كان بغيتهم .

وأما طى الدنيا : فهو أن تطوى عنك مسافتها بالزهد فيها ، والغيبة عنها ، وحصول اليقين التام فى قلبك حتى يكون الآتى عندك واقعًا أو كالواقع ، وسيأتى للشيخ : لو أشرق نور اليقين فى قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت الدنيا وكسفة الفناء ظاهرة عليها ، وسيأتى تتمة الكلام على هذه الحكمة ثم إن شاء الله .

وأما طى النفوس : فهو بالغيبة فى الله عنها ، ولذلك يتحقق الزوال وتمام الوصال ، وقد ذكره الشيخ بقوله فيما يأتى : ليس الشأن أن تطوى لك الأرض ، فإذا أنت بمكة أو غيرها من البلدان ، إنما الشأن أن تطوى عنك

أوصاف نفسك فإذا أنت عند ربك اهـ . وهذا هو الطى الحقيقى المعتبر عند المحققين لا طى الزمان أو المكان ، إذًا قد يكون استدراجًا أو مكرًا أو تخيلا وسحرًا ، فالطى الحقيقى : هو أن تطوى عنك مسافة الدنيا كلها حتى يكون الموت أقرب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، وكما قال الصديق رضى الله عنه :

كُـلُّ امـرِئٍ مُصَبَّـحٌ فى أَهْلِهِ
وَالمـوْتُ أَدْنَى مِنْ شِـرَاكِ نَعْلِهِ

وحتى ترحل عنها بالكلية فلا تبقى فيك منها بقية ، هنالك ترحل إلى عالم الملكوت ، وتكشف لك أسرار الجبروت ، وقد قيل فى قوله عليه الصلاة والسلام : « الدُّنْيا خُطْوَةُ مُؤْمِنٍ » .

بمعنى أنه يتخطاها بالزهد فيها . وقال بعضهم لا تتعجبوا ممن يدخل يده فى جيبه فيخرج ما يريد ، ولكن تعجبوا ممن يضع يده فى جيبه ولم يجد شيئاً ولم يتغير .

وقيل لأبى محمد المرتعش : إن فلانًا يمشى على الماء ، قال : عندى من مكنه الله من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء اهـ .

ومخالفة الهوى إنما تكون بالزهد فى كل شىء والغيبة عن كل شىء . وكان شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : لا تفرحوا للفقير إذا رأيتموه يصلى كثيرًا أو يذكر كثيرًا أو يصوم كثيرًا أو يعتزل كثيرًا ، حتى تروه زهد فى الدنيا ورحل عنها ، ولم يبق له التفات إليها ! فحينئذ يفرح به ولو قلّت صلاته وصيامه وذكره وعزلته .

قلت : ومثل هذا تقدم فى قوله : ما قل عمل برز من قلب زاهد ، وكذلك قال فى التنوير : لا تدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده ، وإنما يدل على نوره وفهمه غناه بربه ، وانحياشه إليه بقلبه ، وتحرره من رق الطمع ، وتحليه بحلية الورع ، وبذلك تحسن الأعمال وتزكو الأحوال اهـ . فما قاله شيخ شيخنا صحيح ، لكن لا يفهمه إلا أهل الفن من أهل الذوق ، إذ لا تجتمع

مجاهدة ومشاهدة ، وإنما تكون المجاهدة أولا ، فإذا حصلت المشاهدة فى الباطن ركدت الجوارح فى الظاهر ، وما بقى إلا فكرة أو نظرة ، والأدب مع الحضرة ، وربما يعترض على الشيخ من لم يعرف مقصوده من جهلة علم الطريق ، وبالله التوفيق .

وإنما يتحقق طى مسافة الدنيا بتحقق الزهد فيها ، ولا يتحقق الزهد فيها إلا برفع الهمة عن الخلق ، والتعلق بالملك الحق ، وبالإياس مما فى أيدى الناس ، كما أبان ذلك بقوله :

[**العطاء من الخلق حرمان ، والمنع من الله إحسان**] .

قلت : إنما كان العطاء من الخلق حرمانًا لثلاثة أوجه :

الوجه الأول : ما فى ذلك من حظها وفرحها ، والتوصل إلى شهواتها وحظوظها ، وفى ذلك موت القلب وقسوته .

الوجه الثانى : ما فى ذلك من نقص الدرجات والغض من كمال المراتب والمقامات ، ولذلك ترك الأكابر التمتع بالشهوات ، لقوله تعالى :

(أَذْهَبْتُم طَيِبَاتِكُم فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا)[1] .

وقد يتعرض المريد للسؤال لأجل موت نفسه وحياة روحه ، فإذا كثر عليه العطاء من الخلق فرحت النفس وأنست فلا تموت به سريعًا ، بخلاف ماإذا واجهه المنع فإنها تموت سريعًا ، إذ لاحظ لها فيه ، فالجهاد الذى لا غنيمة فيه أعظم من الجهاد الذى فيه الغنيمة ، فقد ورد فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إِذَا خَرَجَتْ طَائِفَةٌ لِلْغَزْوِ فَجَاهَدُوا وَغَنِمُوا فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَىْ أَجْرِهِمْ ، وَإِذَا لَمْ يَغْنَمُوا رَجَعُوا بِأَجْرِهِمْ كَامِلاً » أو كما قال صلى الله عليهِ وسلم .

الوجه الثالث : ما فى ذلك من الركون إليهم وميل القلب بالمحبة لهم ، إذ

---

(١) الأحقاف : ٢٠ .

النفس مجبولة على حب من أحسن إليها فتسترق لهم وتكون أسيرة فى أيديهم . وفى وصية سيدنا على كرمْ الله وجهه : لا تجعل بينك وبين الله منعمًا ، وعدّ نعمة غيره عليك مغرمًا ، وأنشد رضى الله عنه :

لَعَمْــرُكَ مَنْ أَوْلَيْتَــه مِنْــكَ نِعْمَــةً
وَمَــدَّ لَهَــا كَفًّــا فَــأَنْتَ أَمِيــرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ مُحْتَــاجاً إليــهِ فَــإِنَّــهُ
أَمِيــرُكَ تحقِيقًــا وَأَنْــتَ أَسِيــرُهُ
وَمَنْ كُنْتَ عنْهُ ذَا غنًى وهْوَ مَالِك
أَزِمَّــةَ أَهْلِ الــدَّهْــرِ أَنْتَ نَــظِيــرُهُ
فَعِشْ قــانِعًــا إنَّ القَنَــاعَــةَ لِلْفَتَى
غنَــاء وَهــذَا مُقْتَضَى مَــا أُشِيــرُهُ

وقال آخر :

فَــلَا أَلْبَسُ النَّعْــمَا وَغَيْــرُكَ مُلْبِسى
وَلَا أَمْلِكُ الــدُّنْيَــا وَغَيْــرُكَ وَاهِبى

وقال شيخ شيوخنا ومادة طريقنا بعد نبيّنا مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه لأبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم ، فإن خيرهم يصيبك فى قلبك ، وشرهم يصيبك فى بدنك ، ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك ، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك اهـ .

وقال بعضهم : عز النزاهة أكمل من سرور الفائدة ، ولأجل هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : « إذَا أَسْدَى إلَيْكُمْ أَحَدٌ مَعْروفًا فَكَافِئُوه » .

أى لتسقطوا منته عليكم ، وتقطعوا رقبته لكم ، والله تعالى أعلم .

وإنما كان المنع من الله إحسانًا لوجهين : أحدهما : ما تقدم من أن الله

سبحانه ما منعك بخلا ولا عجزًا ، وإنما هو حسن نظر لك ، إذ لعل ما طلبته لا يليق بحالك فى الوقت وآخره لوقت هو أولى لك وأحسن ، أو ادخر لك ذلك ليوم فقرك . الثانى : ما فى ذلك من دوام الوقوف ببابه واللياذ بجنابه ، وفى ذلك غاية شرفك ورفع لقدرك ، وفى الحديث :

« إِذَا دَعَا العَبْدُ الصَّالِحُ يَقُولُ الله تَعَالى لِلْمَلَائِكَةِ : أَخِّرُوا حَاجَتَهُ ، فَإِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ صَوْتَهُ ، وَإِذَا دَعَا الفَاجِرُ قالَ لِلْمَلائِكَةِ : اقْضُوا حَاجَتَهُ فَإِنِّى أُكْرَهُ صَوْتَهُ » . أو كما قال عليه الصلاة والسلام لطول العهد به .

تنبيه : ما ذكره الشيخ من كون العطاء من الخلق حرمانًا إنما هو باعتبار السائرين ، أو باعتبار الزهاد والعباد . وأما الواصلون إلى الله المتمكنون مع الله فقد تولاهم الحق . وغيبهم عن شهود الخلق ، فهم يتصرفون بالله ، يأخذون من الله ويدفعون بالله ، ولا يرون فى الوجود إلا الله :

مُذْ عَرَفْتُ الإِلهَ لَمْ أَرَ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعُ
مُذْ تَجَمَّعْتُ مَاخَشيتُ اَفْتِراقًا فَأَنَا اَليَوْمَ وَاصِلٌ مَجْمُوعُ

فلا يرون العطاء إلا من الله ، ولا يرون الخلق البتة إلا ما يشهدون فيهم من واسطة الحكمة ، كما قال القائل :

إذا مَارَأَيْتَ الله فى الْكُلِّ فَاعِلًا رَأَيْتَ جَمِيعَ الكائِنَاتِ مِلَاحَا

وبالله التوفيق ولا حول ولا قوة لا بالله . هذا آخر الباب التاسع . وحاصلها : علامة كمال العارف وآدابه فى الطلب . وفى البسط والقبض ، وفى المنع والعطاء .